الفصل الثانى

الفِكر المُستقبليّ في السُنَة الشريفة

بعد أن رأينا أن للفكر المستقبلي ما له من التأصيل والثبات في القرآن الكريم، نطوف بالسُنَة النبوية الشريفة، فهي التي ينتقل فيها المثل من الحيز النظري إلى الواقع العملي. وإذا كانت نصوص القرآن الكريم تحتمل التأويل الذي يؤدي بها إلى التعطيل في بعض الأحيان، فإن المستقبلية في السنة الشريفة لا تحتمل التأويل، لأنها أحداث وقعت وتركت آثارها في التاريخ البشري. ولسوف نرى كيف أن النبي ﷺ أولى عناية خاصة بالتخطيط للمستقبل، لدرجة جعلته يتفوق على واضعي الخطط أو الاستراتيجيات الذين جاءوا من بعده رغم بساطة الوسائل التي جادت بها الظروف في جزيرة العرب وقتها.

وإذا كانت الاستراتيجيات العسكرية هي وضع هدف نهائي لأي صراع عسكري ومحاولة الوصول إليه بمجموعة من الأهداف والخطط التكتيكية، فإننا سنرى أن النبي كان يخطط لهدفه العسكري ولمجموعة لا تُحْصَى من أهداف السلم وبناء الحضارة الإسلامية العظيمة. وسوف أسوق هنا بعض النماذج التي يتضح من خلالها عبقرية الإسلام المستقبلية من خلال تطبيق النبي ﷺ لها، وهي كما يلي:

بيعة العقبة الأولى:

لا بد من التنويه إلى أن تربية النبي ﷺ للمسلمين في بيت الأرقم بن أبي الأرقم كانت مرتكزا مستقبليا (استراتيجيا).[1]

١) في بيت الأرقم بن أبي الأرقم، وفي ليل الصحراء الهادئ تم تكوين أعظم القادة في التاريخ من خلال مخاطبة الفطرة، والنظر إلى الحقائق نظرة مجردة بعيدة عن أي ملابسات، وإذا نظرنا إلى ما حدث في بيت الأرقم نظرة استراتيجية حديثة لقلنا إنها تشبه معاهد إعداد القادة المدنيين، أو معاهد أركان حرب العسكريين، أو المعاهد الاستراتيجية في العالم الحديث.

ولكننا اخترنا بيعة العقبة الأولى كأول خطوة واضحة من ناحية البناء التاريخي للحدث، بمعنى أنها كانت فعل شيء في الزمان الحاضر ليترتب عليه أشياء في الزمان القادم أو المستقبل.

ضاقت مكة برسول الله ﷺ وبالمسلمين من أصحابه بعد أن تنبه المكِيون إلى أن هذه الدعوة – إن لم يستجيبوا لها – سوف تأتي عليهم في يوم من الأيام. ولذلك استماتوا في مقاومة الدعوى إلى أقصى مدى يتخيله العقل البشري، ووضعوا في وجهها العراقيل التي تعمل على وقف تدفقها في البلاد وفي قلوب العباد. وكان لا بد من البحث عن أرض جديدة للدعوة لتقوم فيها دولتها ويتحدد فيها نظامها ويتكون فيها جيشها، حتى تصل هذه الدولة إلى المقدرة على رد العدوان وإقامة دولة ووضع نظام خاص لها وتكوين جيش لها. كل ذلك لا يتم في أرض الغير، ولا في أرض تُؤَجر من أصحابها. وكانت هذه هي المشكلة المستقبلية[1] الأولى التي واجهت النبي ﷺ وكان لا بد من ضم أهل هذه الأرض إلى نفس الدين الذي ستقوم عليه الدولة عندهم ومن ثم بدأ رسول الله ﷺ في عرض نفسه على القبائل في موسم الحج لكي يدرس أهم المواقع وأقرب القبائل للاستجابة للدين الجديد.

يقول ابن هشام:

«قال ابن اسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

١) اتخاذ مكان جديد للصراع يُسَمى عند علماء الاستراتيجية العسكرية الحصول على (العمق التعبوي) للصراع، وإذا تم إقامة النظام الجديد في هذا المكان تحول إلى (عمق استراتيجي)، أي أصبح قاعدة انطلاق دائمة في الصراع، وهذا ما حدث لمدينة رسول الله ﷺ.

قال ابن اسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم؟ قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهودا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا من أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غروهم [1] ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلّم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله تعالى. قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله أنه النبي الذي توعدتكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة قال: وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[2] وذلك قبل أن تُفْرَض عليهم الحرب.

---

٢) غروهم: غلبوهم- المعجم الوسيط.

١) جاءت بيعة النساء- في القرآن الكريم- في قوله تعالى: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا)- من سورة الممتحنة- الآية ١٢.

وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: على ألا نُشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف.

فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك فأخذتم بحده في الدنيا وكفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة أمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر.

مصعب بن عمير:

فلمّا انصرف القوم عائدين إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فكان يُسَمى المقرئ بالمدينة.(١)

قدمت فيما سبق ما نقله ابن هشام حول بيعة العقبة الأولى، وقد نقلته بتفاصيله حتى نقف على بداية التخطيط العظيم للحصول على مكان آخر (عمق استراتيجي) للدعوة الإسلامية، تنشئ فيه دولتها وتحقق فيه عزتها وتنشر فيه دين الله تعالى الواحد الأحد، حتى تتسع دائرة المعتنقين لهذا الدين، ثم تعود الدعوة إلى مكة ظافرة قاهرة.

لا شك أن كل هذه الأفكار، كانت واضحة عند رسول الله ﷺ وسوف تزداد هذه الخطة عند القارئ بعد أن يتفهم الخطة في بيعة العقبة الثانية لأنها كانت بيعة على الحرب، وسوف نرى أن كل الموجودين في مكان البيعة كانوا يعون المستقبل جيدا بتفاصيله الدقيقة، ويحتاطون لكل ما يستجد من الأمور.

١) سيرة بن هشام ٢/ ٥٦-٥٨.

بيعة العقبة الثانية:

يروي ابن هشام خبر البيعة الثانية يقول: قال ابن اسحاق: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله النصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله .

حدّث كعب بن مالك قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء لنا: يا هؤلاء إني قد رأيت رأيا فوالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك ، قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البنية مني بظهر- يعني الكعبة- وأن أصلي إليها. قال فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ صلى إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، قال: إني لمصل إليها، قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة. قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع وأبي إلا الإقامة على ذلك، فلما قدمنا مكة، قال لي: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله عما صنعت في سفري هذا، فإنه والله قد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ.[1]

وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك. فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا لا، قال: فهل تعرفان العباس ابن عبد المطلب عمه؟

١) أنقل لك هذا النص قبل البيعة لكي تشعر بالجو النفسي السابق عليها وكيف قدم هذان الرجلان مسلمين من غير أن يريا رسول الله ﷺ.

قال: قلنا نعم- قال كنا نعرف العباس وكان لا يزال يقدم علينا تاجرا، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ الشاعر؟ قال: نعم ، قال: فقال له البراء بن معرور: يا نبي الله إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهر، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شئ، فماذا ترى يارسول الله؟

قال: كنت على قبلة لو صبرت عليها قال فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا إلى الشام قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات .

قال كعب بن مالك: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، فقلنا له وإنما نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا.[1]

ثم دعوناه إلى الاسلام ، وأخبرناه بالموعد مع رسول الله ﷺ فأسلم وشهد معنا العقبة، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا.

١) انظر إلى الوعي المستقبلي، إنه يتكلم عن الآخرة باعتبار على أنها الغد، والمسلم ينظر إلى المستقبلية بوعي على أنها خطوات متتابعة.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه[1] ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يامعشر الخزرج- وكانت العرب تسمى هذا الحي الخزرج- خزرجها وأوسها- أما محمد منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده وإنه أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال فقلنا له: قد سمعنا ما قلت: فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده فقال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه أزرنا.[2]

فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم ابن التيهان ، فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا: يعني اليهود، وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا.[3] قال: فتبسم

١) من الآن فصاعدا سيتكشف الوعي المستقبلي والاتفاق على التفاصيل، وجدير بالذكر أن تلك البيعة جاءت بعد الأمر بالقتال- إذن هي البيعة على استراتيجية الحرب وسوف تأتي التفاصيل فتؤيد ذلك.

٢) العرب تكني عن المرأة بالإزار، وعن النفس كذلك.

٣) كما نظر العباس إلى المستقبل البعيد وأخذ العهد عليهم، نظر أبو الهيثم كذلك إلى المستقبل وأراد أن يستوثق من رسول الله ﷺ. ومن هذه النصوص يتضح الوعي المستقبلي عند الجميع: الرسول ﷺ والمشرك على حد سواء.

رسول الله ﷺ ثم قال بل: الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وحدث عاصم بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟

قالوا: نعم قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. (١)

فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

ثم قال رسول الله ﷺ ارفضوا إلى رحالكم. قال: فقال له العباس بن عبادة: والله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا.

قال فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرجعنا إلى رحالنا فنمنا عليها حتى أصبحنا .

قال: فلما أصبحنا غدت علينا جلة من قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وأنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن

١) يتضح من هذا النص فهم العباس بن عبادة للاستراتيجية الكاملة للهجرة ووعيه الكامل بالمستقبل، وليست المسألة هروبًا بالدين كما فهم الكثير من العلماء.

تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال فانبعث من هناك من مشركي قريش قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه قال: وقد صدقوا لم يعلموه قال: وبعضنا ينظر لبعض قال: ثم قام القوم.

قال: ونفر الناس من منى، فتنطس القوم الخبر فوجوده قد كان، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا بديه إلى عنقه بنسع رحله».[1]

ثم أقبلوا حتى إذا أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير فهتف باسم رجلين في مكة كان يجير لهما في المدينة- يعني ينزلان في جواره إذا جاء إلى المدينة فأطلقاه.[2]

التعليق

التعليق على هذا النص يتلخص في عدة نقاط: منها ما يلي:

١) رأينا فيما سبق كيف خطط رسول الله ﷺ للمستقبل.[3]

وكيف احتاط لهذا التخطيط، فهو في البداية أخذ البيعة على الأنصار في العقبة الأولى، وكانت تعتبر بحق بيعة الأساس، لأنها قامت على الدين، وكانت هذه

١) النسع: الشراك الذي يربط به الرحل.
٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٦١- ٦٨، مكتبة الكليات الأزهرية.
٣) ورغم ثقة رسول الله ﷺ لحماية ربه له، فهذا لم يمنعه من أن يأخذ الاحتياط البشري الذي يملكه. «منير الغضبان: المنهج الحركي للسنة- ص ١٨٩ طبعة رابعة ١٩٨٩، مكتبة المنار- ويقول عن خروجه ﷺ في الهجرة: لكن الله- تعالى- حرس نبيه ﷺ لا بمعجزة ولكن بعالم الأسباب في تخطيط البشر. ص ١٨٩م.

بداية طيبة من ناحية الهدف العام وهو نشر الدعوة الإسلامية لأنه لا بد من العقيدة أولا. ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الدفاع عنها، وكلما كانت العقيدة مؤسسة في نفس المعتقد، كلما كان دفاعه عنها قويا ونهائيا. وإرسال مصعب بن عمير إلى المدينة يؤكد الرؤية المستقبلية الممتدة عند رسول الله ﷺ لأنه أضاف الكثير من المؤمنين إلى أصحاب البيعة. وقد رأينا كيف جاء الصحابي الكبير البراء بن معرور وهو يتأول القبلة، وهذا يدل على أنه تعمق في الإيمان، وأن إرسال مصعب بن عمير-رضي الله عنه- كان خطوة مستقبلية مدروسة ومنتجة ولم يكن محض مصادفة كما يتصور البعض أو من باب الكرامة فقط كما يتصور البعض الآخر. إذن فذهاب مصعب بن عمير إلى المدينة حقق هدفه وأنشأ بيئة إسلامية وصنع مكانا مهيئا لاستقبال النبي ﷺ وبناء الدولة الجديدة، وهو ما يُطْلَق عليه في اصطلاح العسكريين (رأس كوبري) أو رأس حربة، أو بداية الزحف.

ب) جاءت بيعة العقبة الثانية لتنقلنا إلى أجواء المستقبل المُخَطط الذي لم يترك فيه للمصادقة شيء، ولكي نقف على صحة هذه الفرضية سوف نتناول بالتحليل رأي ثلاثة ممن حضروا بيعة العقبة الثانية وأُثبتوا من خلال مشاركتهم في البيعة أنهم على وعي كبير بمستقبلية (استراتيجية) البيعة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ وهؤلاء الثلاثة هم:

العباس بن عبد المطلب:

خشي العباس أن يكون الاتفاق قد تم بين النبي ﷺ وبين الأنصار بدافع من الشعور العاطفي عند الأنصار، أو بدافع من اليأس من إسلام قريش عند رسول الله ﷺ ولذلك حاول أن يستوثق من الحضور جميعا فقال:

«يا معشر الخزرج إن محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه[1] فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

إن من يحلل كلام العباس تحليلا مستقبليا يجد أنه كان يسير على خطوات مدروسة، وهو ينظر إلى المستقبل فهو يقول لهم، إن الرسول ﷺ الآن في منعة رغم اختلافه مع قومه ولكنه إذا خرج معكم وذهب إلى بلدكم سيكون غريبا بينكم.[2]

فهل أنتم كافلون له الحماية كما هي مكفولة له بين قومه وأهله، إن كنتم قادرين على ذلك فبايعوه، وإن لم تقدروا على ذلك في المستقبل فاتركوه من الآن في منعته وعزه بين أهله. وكانت هذه الكلمات الصائبة هي التي دفعت الأنصار إلى قولهم لرسول الله ﷺ «خذ لنفسك ما شئت» أي ضع كل القواعد التي سنلتزم بها أمامك الآن، وستكون دستورا لتعاملنا فيما بعد. ولذلك قال لهم رسول الله ﷺ:

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نِسَاءَكُمْ وأبناءكم»، فقال البراء بن معرور: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، وتمت البيعة على شرط المستقبل.

١) يقصد رغم أننا متفقون مع أعدائه في الرأي إلا أننا منعناه منهم.
٢) يلاحظ أن هذا الاتفاق كان قبل الهجرة الشريفة بكثير ولكنه الوعي المستقبلي الذي دونوه في تعاقدهم مع رسول الله ﷺ.

أبو الهيثم بن التيهان:

نظر أبو الهيثم إلى خطوة بعيدة في المستقبل لأكثر من عشر سنوات، وأبعد من نظرة العباس المستقبلية. نظر لما بعد تطبيق هذا الاتفاق المستقبلي وانتصار النبي ﷺ: هل يعود إلى قومه ويترك المدينة وتكون الهجرة من هذه الزاوية خطوة أو هدفا مستقبليا (استراتيجيا) وهم- أي الأنصار- كانوا يأملون أن تكون الهجرة هدفا نهائيا، ففي المدينة سَتُقَام دولة الإسلام ونظام الإسلام، ومن المدينة سينتشر نور الله تعالى في أرضه، ولذلك قال أبو الهيثم: إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها يعني: اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

هنا نرى أن أبا الهيثم يستوثق من رسول الله ﷺ كما استوثق العباس من الأنصار. ويُلَاحظ أن أبا الهيثم لم يخرج من شخص رسول الله ﷺ ويمتنع عن أخذ الميثاق عليه، والسبب في ذلك أن هذا الأمر يتعلق بالمستقبل، والمستقبل كان عندهم مسألة حياة أو موت، والمستقبل والعمل له كان في فكرهم شيئا واحدا ثابتا، تدور حوله طبيعة الحياة، فإن أحسن تنظيمه وتخطيطه كانت الحياة فيه، أي في المستقبل طيبة كريمة، وإن أسيء تخطيط المستقبل كانت المشاكل وظهرت العقبات. ولو كان ما بين الرسول ﷺ وأبي الهيثم بن التيهان، أي شيء من المال أو المتاع فكنا لا نجد معارضة من أبي الهيثم ولكنه كان سيسلم تسليما، ولكن بالنسبة للمستقبل لابد من التخطيط والاتفاق، إنهم لم يكونوا علماء (للاستراتيجية) أو أساتذة في معاهدها، ولكن فكرهم المستقبلي كان واضحا في تفكيرهم وكلامهم، ولو رددنا الأشياء إلى أصولها، وابتعدنا عن زخرف القول، لخرجنا بصورة واضحة عن المستقبلية «الاستراتيجية» ولأصبحت قواعدها بارزة واضحة. ولكن البعض

من بني قومنا لا يفهمون التخطيط والتنظيم إلا إذا قِيل لهم إنه قادم من الغرب، ومن إفراز العلوم الحديثة.

العباس بن عبادة:

نظر العباس بن عبادة نظرة شاملة لكل الأحداث التي ستترتب على هذا الاتفاق المستقبلي «الاستراتيجي» بين النبي ﷺ وبين الأوس والخزرج، نظر إلى قتل الرجال والنساء والأولاد من الأنصار، ونظر إلى هلاك الأموال، وإلى تغير الحال وأراد أن يحتاط ويستوثق من الحضور وهم في بيعتهم، وأراد أن يضيء لهم المستقبل ويكشف لهم الأحداث[1] منطبقة على الواقع في ضوء المستقبل المنظور، فقال لهم:

«يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل، قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه».

من الأمور الدقيقة عند النظر للنص الذي نقله ابن هشام لبيعة العقبة الأولى والثانية وخاصة الثانية، أن معظم الحاضرين في مكان البيعة كانوا يملكون رؤية

١) ولم يضف توفيق الله- تعالى- لرسوله ﷺ ولا كرامة النبي رغم ذلك، ولكنه نظر للمستقبل مقاسا على منطقية الأحداث ومتابعة الواقع، ومما يرضي الله- تعالى- أن يحسب الإنسان حجم جهده وأبعاد دوره أولا- ثم يأتي بعد ذلك العون من السماء.

مستقبلية واضحة، وكان الواحد منهم يبدي رأيه بالنسبة للمستقبل، ويطلب الموافقة أو الرفض بالنسبة لأطروحاته المستقبلية، فإذا وافقوا طُلِب منهم البيعة على ما وافقوا عليه، وهذا ما حدث بعد قول العباس بن عبادة لما وافقوا بايعوا رسول الله ﷺ مرة ثانية، وهكذا في المرات السابقة حدث نفس الشيء.

ويُلَاحظ أن فكرة الدولة الإسلامية قد شخصت في فكرة العباس بن عبادة في بيعة العقبة الثانية وقبل الهجرة، ويُفْهَم هذا من تحذيره لقومه «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود»، معنى هذا أنه استقرأ الأحداث وفهم ما يرمي إليه النبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة وإعدادها لتكون مكانا للدولة الجديدة، أي فكرة رسول الله ﷺ المستقبلية، أو خطته في ذلك كانت واضحة عند العباس بن عبادة ورأي أن تلك الخطة سنتنتهي إلى الدولة وستعمل هذه الدولة على نشر الدعوة الإسلامية في أرض الله تعالى، وسوف تتعرض هذه الدولة لقتال الأحمر والأسود.

لقد كانت بيعة العقبة الثانية مثالا مشرفا للفكر المستقبلي، يكشف عن جانب من عظمة النبي ﷺ، وما أحوج الأمة الإسلامية إلى التأسي بهذه السنة العظيمة في النظر إلى المستقبل وعدم إغفاله بحجة أنه بيد الله تعالى، وهل نحن أكثر إيمانا بالله تعالى من رسول الله ﷺ؟

الإجابة: لا، ومع ذلك كان يفكر في المستقبل البعيد وكان يدفعه الإيمان إلى ذلك، ولن تقوم لفرد أو لأمة قائمة وهي تغفل المستقبل ولا تفكر فيه ولا تعمل له، لأن المستقبل هو الخطوة التالية بعد الحاضر، والذين لا يبصرون موضع خطواتهم القادمة هم أجدر الناس بالتردي في أول حفرة تعترضهم.

ولقد جُنَّ جنون قريش- وهي تفهم المستقبل أيضا- حين علمت ببيعة العقبة الثانية، وكانت تقرأ الغيب مركوزا على هذه البيعة فتراه غيبا مدمرا لها ولمكانتها في جزيرة العرب، إذن هي كانت تعي المستقبلية وقيمة التخطيط لها، ولكن منعها الكبرياء والحقد من اللحاق بالركب الكريم.

وعن بيعة العقبة الأولى والثانية يقول ابن اسحاق: «كانت الأولى على بيعة النساء وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة».[1]

إذن فكلام العباس بن عبادة ضم للبيعة أو المعاهدة وسماها ابن اسحاق ببيعة الحرب، ويقول عبادة بن الصامت «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب، إذن البيعة الثانية هي بيعة الحرب ويرى بعض العلماء أن « الاستراتيجية» تكون في «الحرب» وعلى رأيهم هذا تكون بيعة العقبة الثانية هي استراتيجية- حرب أي وضع خطة للوصول إلى هدف نهائي من خلال عدة صراعات مرحلية.

ج- الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوادع اليهود- لتأمين الجبهة الداخلية:

ومع انتقال الرسول ﷺ وبعض أصحابه إلى المدينة، برزت مشكلة اليهود الذين يرون المستقبل بوضوح، ويعلمون أنهم لا بقاء لهم مع هذه الدولة الفتية التي تقوم على الحق والعدل والعفة والطهارة، وكلها صفات تقلل من نفوذ اليهود

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٢.

وتحد من سيطرتهم على الناس. أضف إلى ذلك أنهم، ومن خلال الأحداث، تكونت لديهم صورة واضحة عن النبي ﷺ وعلموا أنهم لن يستطيعوا خداعه، وأن صناعة المكائد لن تجد رواجا في المدينة في عهدها الجديد.

واستطاع النبي ﷺ أن يحتويهم في معاهدة جديدة وادعهم فيها.[1] وأثبت لهم ما يحق لهم، وما يجب عليهم. يقول ابن هشام: قال ابن اسحاق:

«وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي (ﷺ) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف، والقسط بين المؤمنين، وبني عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[3] كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

---

١) ليس معنى هذا أن النبي ﷺ كان يجهل نوايا اليهود الخبيثة، ولكن العهد الذي قطعه لهم يلزمهم في حال الخيانة، وأصبح هذا العهد دستورا في المدينة يحاسب عليه فرقاؤها وليس هذا في صالح اليهود، وهو في جميع الحالات يجنب الدولة الفتية الصراع وهي ما زالت في مرحلة التكوين، ويعطي الفرصة لليهود إن أرادوا العيش في أمن وسلام في جنبات الدولة الجديدة، وهي خطوة مستقبلية عظيمة أن يحافظ على جهد الدولة في مرحلة التكوين ولا يضيع قوتها في صراعات هامشية.

٢) عانيهم: أسيرهم – المعجم الوسيط.

٣) المعاقل: الديات: المعجم الوسيط.

الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه – وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم، أو ابتغي دسيعة ظلم[1] أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان والد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازة غزت معنا يعقب بعضها بعضا وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا[1] عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ﷺ) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين

١) الدسيعة: أي طلب دفعًا على سبيل الظلم فأضافه إليه، فالإضافة معنى من: تاج العروس.
٢) اعتبط: قُتِلَ بلا جناية.

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه – وأهل بيته، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف وأن ليهود بني ساعدة مثل ليهود بني عوف وإن ليهود بني جثم مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلب مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه – وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد بإذن محمد (ﷺ) ولا ينحجز على ثار جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم وإن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثن وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار، ولا آثم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد (ﷺ) وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، الا من حارب في الدين علي كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل مالأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

١) يوتغ: يهلك.

قال ابن هشام: مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة- وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسبا إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (ﷺ).[1]

إن قراءة هذه الصحيفة بفكر مستقبلي توضح أنها كانت دستورا لمدينة رسول الله ﷺ وأنها كانت خطوة مرحلية «تكتيكية» تنسجم تماما مع الهدف النهائي لقيام دولة الإسلام التي سيُنَاط بها نشر الدعوة الإسلامية وسيادة العالم بالحق والعدل والخير والجمال، وقد احتاط فيها رسول الله ﷺ لكل ما يمكن أن تأتي به الأيام أو يُسْتَجَد في الأمور، وتصور المدينة وهي تغرق في صراعات داخلية ووضع لذلك القواعد والخطط، وتصور المدينة وهي تجارب عدوا خارجيا، وجعلها كلها صفا واحدا في مواجهة. فعن الصراع الداخلي يقول:

«وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة، من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ».

وعن الصراع الخارجي يقول: «وإن بينهم النصر على من دهم يثرب».

وهكذا يتضح في كل الصحيفة الفكر المستقبلي العام ويبقى سؤال: هل وادع رسول الله ﷺ بهذه الصحيفة كما يرى ابن هشام، وكثير من المؤرخين القدامى؟

أرى أنه لم يوادعهم ولكنه وضع لهم قانونا ملزما، وفتح لهم طريقا للعيش بين المسلمين في ظل دولة الإسلام الناشئة، ولذلك لما غدروا فيما بعد تمت محاكمتهم

١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨- ٩١ ط المكتبة التوفيقية.

على أساس هذه الصحيفة، ولذلك لم تكن موادعة بالمعنى العام الذي يجد فيه الخصم مطعنا ولكنها كانت سلاما وإلزاما.

د) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هي الخطوة الرابعة من الخطوات المستقبلية الكبيرة التي قام بها رسول الله ﷺ، فبعد أن تمت له السيطرة على تفاعل العناصر العرقية والطبقية في المدينة من خلال المعاهدة السابقة، سيطر الإخاء على التفاعل داخل النفوس، وانصهر الجميع في بوتقة الإيمان وهم ينتظرون فجرهم الذي بدأ يلوح في الأفق.

يقول ابن هشام عن الإخاء في المدينة: قال ابن اسحاق:

وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: فيما بلغنا: «تآخوا في الله أخوين أخوين»، ثم أخذ بيد علي بن ابي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين، ورسول رب العالمين- الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد،[1] وعلي ابن أبي طالب- رضي الله عنه أخوين. وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ﷺ وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين. وكان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- وخارجة بن زهير أخوين، وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش أخوين، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر

١) الخطير: ذو الشرف والرفعة، عظيم الشأن.

أخوين، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش أخوين، وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وبلال بن رباح وأبو رويحة أخوين، فهؤلاء من سُمّوُا لنا ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه.[1]

هذا الإخاء هو الذي دفع الجميع للتضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وفي سبيل هذه العقيدة الجديدة التي لا تميز بين الناس على اعتبار العرق أو اللون وإنما ثبت فيها «أكرم الناس عند الله تعالى أتقاهم»، وهذا الإخاء كان يترتب عليه حقوق كثيرة. من هذه الحقوق قسمة الأموال بين المتآخين، وكان الإخاء يعني المساواة من جميع الزوايا الاجتماعية والمالية وخلافها وأكبر دليل على ذلك المؤاخاة بين حمزة عم رسول الله ﷺ وأسد الله تعالى، وزيد بن حارثة مولى (خادم) رسول الله ﷺ. كيف تم هذا؟

لا بد أن هذه النفوس تربت في بيت الأرقم على قيم ومثل جديدة، وهذه القيم، وهي من عوامل السيادة والغلبة، وهي من العوامل المستقبلية الاستراتيجية التي تم إعدادها مبكرا مع بزوغ فجر الإسلام وفي بيت الأرقم بن أبي الأرقم، لأن بناء دولة وتكوين أمة لا يتم إلا بإعداد الجيوش وإحكام الخطط، فقد ينفع هذا في معركة أو غزوة ولكنه لا يعمر طويلا لأنه بعد عودة الجيوش وانتهاء الصراع، تتصارع العوامل الطبقية من جديد، بعد أن كانت كامنة أثناء المعارك ثم شيئا

١) سيرة ابن هشام:٢/ ١٠٩-١١٠ ط مكتبة الكليات الأزهرية.

فشيئا تنهار قوة الدولة، ولا يستطيع الجيش الذي انتصر في الخارج أن ينتصر في الداخل، لكل ذلك كانت المؤاخاة بين المسلمين من مهاجرين وأنصار منهاجا مستقبليا يؤمن الأمة في صراعها مع الأعداء ويفرز لها قوى متجددة تمدها بالثبات في معاركها المتلاحقة.

هـ- الآذان:

قد يشير العجب عند القارئ أن يكون الآذان ثمرة أولى من ثمار الاستراتيجية الدقيقة التي اتبعها رسول الله ﷺ، فهو ثمرة من ثمارها وهو في ذات الوقت خطوة محسوبة من خطواتها:

– فهو ثمرة لأن رسول الله ﷺ كان يتمنى أن يُرْفع الآذان في مكة ويقيم كل شعائر الإسلام هناك عند البيت العتيق، ولكن قامت في وجهه قوى الجهل والتخلف والوثنية، واستماتوا في مقاومة هذا الدين الجديد، حتى أصبح إعلان هذا الدين من أحد الأفراد نذيرا بإنهاء حياته. لابد هنا فكر رسول الله ﷺ في أمرين:

الأول، كيف يبلغ الرسالة؟[1]

الثاني: كيف يخضع سكان مكة نفسها لشرع الله تعالى ويحرر البيت من قبضة الكفر الحديدية؟ وكانت بيعة العقبة الأولى: للبحث عن مكان تقام عليه دولة الإسلام المخرجة للقيادة: «كنتم خير أمة أُخرِجت للناس»، والمُرَشَّحة للسيادة. وكانت بيعة العقبة الثانية: على الحرب لنصرة دين الله تعالى، ثم الميثاق أو الدستور الذي وضعه ﷺ للمدينة.

١) التبليغ هنا يعني بناء أمة جديدة تقيم شرع الله تعالى في أرضه، وليس معناه إلقاء الخطب والمواعظ– كما يفعل كثير من الدعاة الآن.

وابن اسحاق يروي خبر الآذان بفهم عميق لمجريات الأمور، ولأبعاد المستقبلية في المنهاج الإسلامي فيقول:

«فلما أطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار واستحكم أمر الإسلام، قامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الاسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوؤوا الدار والإيمان».[1]

إذن وجدت الأرض التي يتحول عليها الإسلام من فرض نظري إلى واقع عملي. ومن هنا كان الأذان ثمرة من ثمار التخطيط المستقبلي في الإسلام، وهو خطوة من خطواتها:

والأذان خطوة من خطوات المستقبلية إنه شعار الأمة الحي، فلا بد أن تصارع الأمة وغيرها من أجل أن يكون الله أكبر من كل شئ، والله اكبر هو اللواء الذي سوف يسير تحته الجيش الإسلامي والأمة الإسلامية طوال العصور ثم إن الأذان هو شعار الصلاة وبناء المجتمع على الصلاة والطهارة يعني مستقبليا بناء أمة من الأشراف الأقوياء الذين يجعلون مرضاة الله تعالى فوق كل شئ.

والغلبة التي هدفها الدنيا تنطفئ جذوتها بسرعة لأن هدفها قريب ودنيوي، والغلبة التي هدفها أن يكون الله أكبر ودينه أكبر، وشرفه أكبر، وهذه الغلبة تدوم متجددة بدوام أمة الأذان أمة الصلاة أمة الزكاة، أمة فرض الحلال والحرام، وإقامة الحدود. وإذا كانت الصلاة في الأمة المهزومة تعني العبادة والترقي الروحي،

١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١١.

فهي في الأمة المنتصرة تعني الوقود المتجدد لنشر دعوة الإسلام، وسيادة الإسلام على كل الشرائع، وسيادة المسلمين على كل الناس. لقد كانت الصلاة في المدينة في مسجد رسول الله ﷺ وخلف إمامته الشريفة، تعليما للغلبة في الحياة، ووصلا برب الحياة، ولم تكن الصلاة عندهم «أقوالا وأفعالا» كما هي عندنا الآن بل كان النظام والعاطفة في صف الصلاة، هما النظام والعاطفة في صف القتال، وكان العمل للآخرة عندهم يعني من باب أولى، العناية والعمل والتخطيط لما ينفع الناس ويطور الحياة، وكانوا يصلون ويزرعون ويقاتلون ويستنطقون أرض الله تعالى لتبوح بسرها المكنون، والذي يعطي لكل باحث مثابر، ويمنع عن كل متكاسل متكابر، من أجل كل ذلك كانت الصلاة خطوة من خطوات المستقبلية الإسلامية في مدينة رسول الله ﷺ.

و- المستقبلية في تعسكر الجيش في بدر:

اختار رسول الله ﷺ مكانا في بدر ونزل عنده، ولكن هذا المكان لم يكن من الوجهة المستقبلية نافعا، وأشار عليه أحد الصحابة بمكان مستقبلي آخر، وعلى الفور وافق رسول الله ﷺ يقول ابن هشام:

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم (القرشيين) إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يارسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله ثم تغور ما وراءه من القلب،

ثم تبني عليه حوضا فتملأه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي، فنهض الرسول ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت [1] وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا في الآنية.. وقال سعد بن معاذ: يانبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير ثم بُنِي لرسول الله ﷺ عريشٌ- فكان فيه.[2]

في النص السابق أسس مستقبلية توضح تلازم الفكر المستقبلي مع سير الأمة الإسلامية منذ البداية وأنه كان هو الفكر الغالب، ويتضح ذلك من عدة وجوه:

١) إن رسول الله ﷺ كان هو قائد الجيش في غزوة بدر، وهو الذي يتلقى الوحي من ربه سبحانه وتعالى، وهو الذي تتعلق به أفئدة المسلمين، وهم مقبلون على إحدى الحسنيين. وكان يجب لكل هذه الاعتبارات أن يكون رأيه نافذا ونهائيا، فمن له بعد رسول الله ﷺ رأي. ونزل ﷺ بالناس عند أدنى ماء من بدر وترك أمامه كثيرا من آبار المدينة، وكان المفروض أن يكون هذا هو المنزل النهائي للقوم- رسول الله والذين معه.

١) قلب، جمع قليب: بئر قديم.

٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩١و ١٩٢.

٢) نظر الحباب بن المنذر لما سيحدث في المعركة ووازن بين الأماكن المختلفة ووجد أن المنزل الذي نزله الرسول ﷺ ليس بمنزل لأنه لا يدخل عنصر المياه- على أهميته في المعركة- ولكنه احتاط لنفسه وسأل الرسول إن كان هذا المنزل بوحي من الله تعالى، فالله يعلم غيب السموات والأرض وليس لنا مع أمره اختيار، وإن كان الله تعالى ترك لنا أن ندبر وندبر معركتنا. [١] ونخطط كيف نشاء وجمع ذلك في قوله: أم هو الرأي والحرب والمكيدة. وهنا أشار بتغيير المكان والانتقال إلى أقرب ماء من القوم ووافقه الرسول ﷺ على ذلك .

٣) إن الحباب بن المنذر خطط لمعركة إذا قامت ومعظم الآبار في جانب العدو، وحدث تقهقر من المسلمين بعيدا عن الماء في عرض الصحراء فإن المعركة عمليا تكون قد انتهت لصالح العدو مهما حدث بعد ذلك من نزال وقتال، ولو احتل المسلمون أماكن الآبار وغوروها وبنوا بئرا كبيرا يشربون منه فإنهم سيقاتلون عدوًّا لا يجد ماء يشربه في لظى الصحراء وكلما شدوا عليه ابتعد كثيرا عن الماء. وكل ذلك ترسمه الحباب في رأسه قبل أن يحدث بساعات طويلة في الواقع. ومسلم اليوم يقول لك إننا سنحارب لله تعالى ولنشر الإسلام والله يدبر لنا كل الأمور، وهي كلمات حق يُرَاد بها عدم التخطيط وبرهانه التكاسل والتواكل. لقد قامت المعركة في رأس الحباب قبل أن تقوم في الواقع وخطط لها وأقره النبي ﷺ على ذلك.

٤) لقد اعترض الحباب على المنزل الذي نزله الرسول ﷺ واختار منزلا آخر، وقد هداه إلى ذلك فكره الحر ورؤيته المستقبلية. والمرء يتحير حين يطالع ذلك ويرى كثيرا من العلماء يدركون أن في بعض ما قاله القدماء كلاما لا وزن له

١) لو قلت لمسلم في الوقت الحاضر - مظهرا التدين - اترك الأمر لله تعالى لأذعن متواكلا ولكن الصحابة كانوا يخططون ثم يتوكلون ولا يتواكلون.

ولا نفع فيه، ومع ذلك ينقلونه بخشوع عظيم ولا يعلقون عليه إلا بما يسوغه للناس، ولا يمنعهم عن نقده إلا أنه قد قاله القدماء، ويرى المرء كثيرا ممن يسمون أنفسهم بالمريدين في الطرق الصوفية إلى نقد مشايخهم سبيلا، وهم يرون منهم كثيرا من الأخطاء ولكنهم يؤولونها دائما تأويلا يخرجها عن الخطأ ويثبت الإلهام لصاحبها، ولو فعل الحباب بن المنذر كما يفعل هؤلاء المريدون لهلكت عصابة الإسلام الأولى واجْتُثَّت من أساسها.

٥) لم يقف الصحابة في وجه الحباب ويمنعونه عن الاعتراض، بل تُرك للتعبير عن رأيه بحرية تامة لأنهم رجال يحترمون الرأي الصحيح ولو كان مخالفا لما تصوروه صوابا ولما نظر إلى المستقبل وأقره النبي الكريم ﷺ على نظره لم يعترض أحد ولم يخرج برأي آخر يسفه فيه رأي الحباب ولو من باب الحسد والكيد لمستقبلية الحباب. لم يحدث هذا أبدا رغم أنها مسألة حياة ومصير.

رأي سعد بن معاذ:

يتسم رأي سعد بن معاذ بالمستقبلية البعيدة في الزمان والمكان على السواء، فهو لم يفكر في جو المعركة أو الأيام التي ستستغرقها كما فعل الحباب بن المنذر، ولكنه نظر في سيرة الدعوة الإسلامية تنساح في أرض الله تعالى في الزمان البعيد الذي لا يُحد إلا بالقرون. ورأى أن ذخيرة الإسلام ووقوده وهو قلبه وفؤاده ورأى أن هذا المرتكز لو سقط فلن تقوم للدعوة الإسلامية قائمة لأن الإسلام لم يكتمل بعد، ورأى أن رسول الله ﷺ هو قوة المسلمين الأولى الرئيسية، وأن الذي يضحي بقوته الرئيسية في أول معركة يكسبها أو يخسرها فإنه من الناحية المرحلية والمستقبلية (التكتيكية والاستراتيجية لا يكون مصيبا في تخطيطه ولا محددا الهدف النهائي، ووجد أن بقاء الرسول ﷺ مع فناء هذه العصابة المسلمة

في بدر، هو بقاء للإسلام على المدى القريب، ثم وجد أنه ﷺ مصمم على أن يتبوأ مكانة في الصفوف الأولى من الجيش ولم يكن ذلك صوابا عند سعد بن معاذ فعرض رأيه على رسول الله ﷺ هكذا:

يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه [١] ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركابك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه. [٢]

أدرك سعد بن معاذ أن الرسول ﷺ يُعتبر هدفا نهائيا (استراتيجيا) للمسلمين لأنهم ما زالوا في حاجة إليه لبناء أمة الإسلام العظيمة، وبالنسبة للعدو من المشركين لأنهم يريدون بقتله القضاء على هذه الأمة الفتية، ومن هنا كان حرصه على حياة رسول الله ﷺ ووضح له كيف يتخلص من المعركة في حالة الهزيمة ليستمر في بناء الأمة، وإعداد العدة لمقابلة المشركين في معركة أخرى.

والجدير بالملاحظة أن الرأيين الاستراتيجيين في معركة بدر، رأي الحباب بن المنذر «السيطرة على الماء»، ورأي سعد بن معاذ «الحفاظ على هدف الأمة النهائي

١) عريشا: مكان للقيادة خلف الجيش وهو ما عليه عمل الجيوش فى الحرب حتى الآن.
٢) سبق نظيره.

في ذلك الوقت»، هذان الرأيان لم يأتيا عن طريق الوحي المباشر، أو غير المباشر، كالإلهام مثلا، إنما كانا رأيين بشريين عاديين. (١)

وكان هذا درسا لنا لنعلم أن على الإنسان أن يفكر بنفسه كيف يتفوق في الحياة، يخطط ويدبر والله تعالى يساعده بعد ذلك. كما يجدر بالملاحظة موافقة رسول الله ﷺ المباشرة والمشفوعة بالثناء والدعاء بالخير للذين يفكرون في المستقبل ويخططون له، وهي ملاحظة لو تعمقنا في فهم مراميها لتغير حالنا الآن، فبين ظهرانينا أناس يعتبرون التفكير في المستقبل ضعف إيمان وعدم ثقة بقدرة الله تعالى، ويعتبرون الغيب لله تعالى ويتحرجون من أي تفكير فيه وشعارهم المعروف: (لا تدبر لك أمرا إن أولي التدبير هلكى)، وما زال يتردد هذا القول حتى أصبح يشبه العقيدة الثابتة عند هؤلاء، ولعل موقف الحباب بن المنذر وسعد بن معاذ في بدر أكبر رد على هؤلاء ومن ينهج نهجهم في الحياة.

دعاء رسول الله ﷺ بالنصر في بدر:

في هذا الدعاء نظرة ثاقبة للمستقبل البعيد، فقد أعد الرسول ﷺ أصحابه أحسن إعداد وجعلهم مرتكزات الإسلام المستقبلية، وحشد أغلبهم وأقوى عناصرهم في بدر ورآهم- كما رأوه من قبل- هدفا استراتيجيا للإسلام، ورأى في هلاكهم هلاكا لهذه الدعوة، وركز في دعائه على هذه النقطة بالذات، فقال ﷺ:

«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد».

١) ما أحوجنا إلى أن ندرك واجبنا فى الإعداد لمواجهة العدو رغم اعتمادنا الأول والأخير على الله – تعالى – لا أن نحيل تقصيرنا وضعفنا وتهاوننا على القدر، ونبكي على عدم نصر الله تعالى لنا، ونحن المسئولون عن ذلك – منير محمد الغضبان – المنهج الحركي للسنة النبوية ص ١٨٩ ط مكتبة المنار ١٩٨٩م. طبعة رابعة.

وهذا الدعاء ليس قابلا للتأويل، فألفاظه واضحة ومعانيه أوضح من ألفاظه، وهو يقال لمن يعلم السر وأخفى ويعلم الماضي، والحاضر، والمستقبل، إذن فهو يقول لربه: هذه ذخيرتي وعدتي لبناء أمة الإسلام، وإن تهلكها فلن تُعْبَد بعد ذلك لأنها الرسالة الخاتمة والأمة التي ارتضى الله تعالى أن تكون خير أمة أُخْرِجَت للناس.